الباب الرابع

خادم الخدم !

الكيك لفطور العصافير !

● كان الحكيم يجلس فى صالة البيت ينتظر قدوم منصورة !

● إما أنا وإما هو فى هذا البيت !

وتأتى علاقة توفيق الحكيم بمديرة بيته « منصورة » لترسم لنا صورة نادرة لارتباط عجيب امتد منذ شباب الحكيم وحتى وفاته حتى صارت « منصورة » جزءاً من بيته وفرداً من أسرته ، خاصة وأنها تربت من قبل فى بيت أم توفيق الحكيم التى كانت لديها رغبة شديدة فى أن تأخذ الطفلة « منصورة » ابنة جارهم الطيب الأسطى ، على حمادة ، (الحلاق) ، لتساعدها فى شئون البيت ، ولكن أمها كانت معترضة :

ياللعيب .. بنتى تشتغل خادمة .. لا يمكن أبدا .

لكن منصورة « الطفلة – الصغيرة ذات السبع أو الثمانى سنوات ، كانت عند حضورها من المدرسة تحب أن تلعب كزميلاتها ، ولم يكن يحلو اللعب لها إلا فى حديقة بيت « أسماء البسطامى » أم توفيق ، التى كانت تشجعها وتحضر لها اللعب والملابس الحديثة، فراقت الحياة «لمنصورة» فى هذا البيت فكانت تقضى فيه أغلب نهارها ، ورغم أن أمها كانت تغريها وتقسم عليها اليمين تلو اليمين ألا تذهب إلى بيت أم توفيق ، إلا أنها لم تتب أبداً عن الذهاب إلى هذا البيت ، ولما لم تفلح الصغيرة فى المدرسة شجعها أبوها على الذهاب إلى بيت أم توفيق رغم اعتراض أمها التى قال لها : ابنتنا ستكون هى ابنة أم توفيق .. وبمساعدتها لها ستساعدنا ، فقبلت الأم مرغمة ، وطمأنتها أم توفيق أن ابنتها ستكون فى عينيها ، وستكون بمثابة ابنتها ، فهى لم تنجب بنات ، وستكون كل طلباتها وطلبات أسرتها مجابة .

ونشأت منصورة فى بيت أم الحكيم فى الاسكندرية ، وانتقلت معها إلى قرية « أبو مسعود » بدمنهور حيث اشترت أرضا هناك ، وذات يوم

ذهبت الطفلة « منصورة » بالقهوة إلى توفيق فانتابها الفزع ، وعادت مذعورة إلى أم توفيق ، تقول لها : ستى . ستى .. البيه بيكلم نفسه ! » ، فقد كان كعادته يجرى حواراً مع نفسه بين أبطال أعماله قبل أن يكتبه على الورق ، ولما عرف بالحكاية ، قام بتهدئة « منصورة » ، وقال لها : هل أنت خائفة منى ؟ .. لا تخافى .. ولن أكلم نفسى بعد اليوم لأجل خاطرك .

وكبرت منصورة ، وازداد اعتماد أم توفيق عليها ، فقد كانت تثق فيها لإخلاصها وأمانتها ، حتى عندما كانت تبعث الرجال لقضاء مصالحها لم تكن تثق فيهم إلا عندما تكون « منصورة » معهم .

تعطيها النقود وتقول لها :

اذهبى معهم وحذار أن يضحكوا عليك ويقولوا لك هات الفلوس .. اجعلى الشراء يتم على يديك .. وادفعى الثمن .. ثم عودى ولا تعطيهم شيئاً .

وعندما أرادت أم توفيق أن تهدى ابنها المقيم بالقاهرة خير هدية ، لم تجد سوى « منصورة » التى تثق فى إخلاصها وأمانتها لتكون خير مدبرة لأمور بيت ابنها ، وانتقلت منصورة بعد رفقة ثلاثين سنة ، لترافق توفيق الحكيم إلى آخر حياته دون أن تفكر أن تتركه ، بل إنها حرمت نفسها من الزواج ليس من أجل المرتب الشهرى الذى أوصت أم توفيق به فى وصيتها لمنصورة ليصبح من حقها مدى الحياة مادامت لم تتزوج ، فهذا مالم يخطر على بال منصورة ، لقد أحبت أم توفيق وأحبتها ، وأحبت توفيق عندما انتقلت إلى بيته لرعايته ، وأحبها توفيق وأغدق عليها وأشعرها بأنها واحدة من الأسرة كعادته فى معاملة كل المتصلين به ، ورغم أن « منصورة » وهى اليوم فى مرحلة الشيخوخة

تغلبها دموعها لأنها نسيت أن يكون لها زوج وأولاد يحملون ذكراها ، إلا أنها غير نادمة لأنها أفنت عمرها فى خدمة أسرة الحكيم ، التى صارت أسرتها وصار أبناء الحكيم وأحفاده هم أولادها وأحفادها .

وقد كان آخر ما قاله لها الحكيم قبل أن يدخل دخوله الأخير للمستشفى « أنت ربنا سيكافئك يا منصورة لأن أخلاقك عالية ، فأنت مثل البلسم الذى يوضع على الجرح فيلتئم ، أنا لا أنسى وقوفك معى وقعودك بى وتركك لأهلك من أجلى » .

ولذلك عندما كان الحكيم وحده وليس معه سوى « منصورة » كانت تقوم على رعاية شئونه ، وعندما كان يشعر بأنها مرهقة ومتعبة ولا تستطيع القيام من سريرها كان يقول لها « كما أنت ابق فى سريرك لا ترهقى نفسك » ، فتقول له « كيف لا أقوم ولا أحد فى البيت يعد لك طعامك » ؟ فيقول لها «ليست هذه مشكلة يكفينى أن أسلق بيضاً أو أقليه أو أى حاجة آكلها لا يهم ولكن المهم راحتك » .

كان الحكيم يحرص على راحة منصورة ويجعلها تشعر كأنها صاحبة البيت يعطيها مصروف الشهر كله ، وكذلك كانت ابنته تفعل مثلها عندما استقرت معه ، فعند أول الشهر يقول لها : كم حسابك ؟ ، فتقول له الجملة كذا ؟ فيعطيها ويقول لها خذى زيادة مثلما تريدين ، وعندما تحتاج إلى نقود أكثر لأن السلع ارتفعت أسعارها فإنها تحمل على كتفيها من لا يستطيع أن يرد للمتشفع به طلباً عند الحكيم ، صغيره « محمد » ، فيقول الحكيم لمنصورة ضاحكا « مادمت جئت بمحمد معك فلابد أن لك طلباً ، اطلبى ما تشائين فلن أؤخر لك طلباً لأن معك الصراف الخاص بك ، كم تريدين ؟ فتقول له : حضرتك عارف الحياة أصبحت غالية وأقل زوجين من الفراخ بتسعة أو عشرة جنيهات » ، فيقول لها « يعنى مطلوب كم

جنيه ؟ » ، فتقول له مثلاً « ثلاثون جنيها ، فيعطيها لحفيده « محمد » الذى تحمله على كتفها وهو يقول له « اعطيهم لـ « دده » حسبما ينطق الحفيد الصغير ذو السنة والنصف سنة ، فقد كان بيت الحكيم يستهلك لحوماً ، بـ ١٢٠ جنيها أسبوعيا ، لأهل البيت ومن قد يزورهم من الأقارب أو المعارف ، عائلة ناجا أو نورا ، أو أصدقاء الحكيم المقربين كالدكتور حسين فوزى الذى كان يزور الحكيم تقريباً كل يوم جمعه ويتناول طعام الغداء معه ، وآخرين كإبراهيم فرج ، وثروت أباظة ، ونجيب محفوظ ، قلة محدودة هى التى كان الحكيم يسمح لهم بدخول بيته فى وقت لم يكن يسمح لأحد بدخول بيته إلا لمثل هذه الطبقة القريبة جداً من أصدقائه ، والذى قد يسمح لهم بأن يأكلوا معه على مائدته لثقته أن أحداً منهم أبداً لن يفشى سر كرمه أو يبوح بما يفسد إشاعة بخله المشهورة ، ومن الأجانب من كان يسمح لهم الحكيم بدخول بيته والجلوس على مائدة طعامه ، ومنهم صحفيتان أمريكيتان ، استضافهما وطلب من « منصورة » أن تعدلهما « محشى ورق العنب » ، والكوسة ، والملوخية ، ودقية بامية ، وغيرها من أنواع الطعام الذى يحبه الحكيم ولا يأكله ضيوفه فى بلادهم ، وقام الحكيم بتعريف الصحفيتين ، بصاحبة الطعام الشهى الذى أعجبهما ، ولما كانت منصورة آنذاك لاتزال متعبة صحيًّا ، فقد اقترحت عليها الأمريكيتان ، أن تسافر معهما للعلاج فى أمريكا وسيعودان بها شابة صغيرة ، فقال لهما الحكيم ضاحكاً :

جئتما للغداء أم جئتما لتأخذا منصورة ؟ ! وعندما عولجت « منصورة » اكتشف الأطباء انقلاب فقرة من فقرات ظهرها مما جعلها تشعر بالآلام التى كانت تحس بها ، واقتضى العلاج وضع حزام طبى حول ظهرها ، مما جعل الحكيم يحمل عنها عبء أى شىء يقتضى انحناءها ، ويقول لها عندما تهم بالتحامل على نفسها لحمل أى شىء : ابق واقفة كما أنت وأنا

أجيء إليك » وينحنى هو ، مثلاً ليحمل طبقا أو يضع طبقا ، حتى لا يرهق مديرة بيته أثناء فترة علاجها .

وعندما أصيبت بشلل نصفى كانت تذهب للعلاج بالجلسات الكهربية عند طبيب فى «الكيت كات»، عاودته مرتين، فى إحداهما كان إسماعيل الإبن ، موجوداً بالبيت ، وفى المرة الثانية لم يكن بالبيت سوى الحكيم .

حين عادت فى المرة الأولى كان بانتظارها إسماعيل ولما رآها قال لها مبتهجاً « هيه .. أمى جاءت . أمى جاءت » .

فقد كان يعتبرها فى مقام أمه التى ماتت ، ويعمل على راحتها مثل أبيه ، ويقول لها « أحسن علاج لمرضك يا ماما هو عسل النحل .. تأخذين منه ملعقة فى الصباح وأخرى فى المساء .. إسمعى نصيحتى من أجل خاطرى لو كان لى خاطر عندك » . فقد كان يحبها ، وهى تحبه ، وتطهو له السمك ، الذى يحبه مهما كانت فى أقصى ساعات مرضها وآلامها .

أما فى المرة الثانية التى عادت فيها من عند الطبيب ، فقد كان الحكيم يجلس فى صالة البيت ينتظرها ، على غير عادته فى الجلوس فى حجرته خشية ألا يسمع دقات الجرس ، وعندما رأى ظلها ينعكس على باب الشقة قام بفتحه قبل أن تدق الجرس .

فقد كان يعتبرها جزءاً من أسرته تنال من الحقوق والرعاية ما يناله أى فرد فيها ، لذلك كان حريصا عليها ، ولا يفرط فيها ، وعندما كان أحد من أهلها يأتى لزيارتها ، كان الحكيم يتأكد أولا من كل منهم « هل جئت لتأخذ « منصورة » ؟ فيقول له « لا والله يا بيه أنا ما جئت لآخذها جئت فقط لزيارتها » ، ولكنهم لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا لها فيما بينهم وبينها « ألن تأت إلينا ، تعال وكفى ما مضى من عمر قضيتيه من أجل أسرة الحكيم ، إن بيتنا محتاج إليك وقد أصبح خاوياً بعد موت والدك

وأخويك الاثنين » ، ولكن « منصورة » تظل وفية ولا تتخلى عن الرجل الذى يفعل من أجلها كل شىء ، ولكنه مع تمسكه بها لم يكن يمنعها عن أهلها ، فيقول لها : اذهبى إلى أهلك وخذى راحتك وشوقك معهم » ، ويحاولون معها لكى تعود ، سواء حينما تزورهم أو يزورونها ولكنها أبداً فقد تعودت أن تعيش فى بيت الحكيم ، إنه بيتها الذى تستريح فيه ، ويحثها الحكيم على ألا تقصر فى حق أى أحد من أهلها حين يزورونها ، وألا تكون محرجة فيأخذها الحياء ألا تقوم بالواجب نحوهم ، ويقول لها « اصنعى لهم أفضل طعام ، لماذا تقومين بالواجب مع الأغراب ، وتقصرين فى حق إخوتك » ؟ ، بل يصل الأمر إلى حد انفعال الحكيم على « منصورة » لكى « تبحبح » يدها فى إكرام أهلها لأن البيت بيتهم . ويظلون ما شاءوا من الأيام والليالى فى ضيافة الحكيم خلال فترة إقامتهم وتجوالهم للفسحة وزيارة معالم القاهرة .

وحين يكون أولاد أخوات « منصورة » موجودين يعاملهم الحكيم معاملته لأحفاده ، مثلا « محمود ابن أخى « منصورة » الذى توفيت أمه وعمره خمس سنوات ، كان الحكيم يعطف عليه ولا يتركه يسافر قبل أن يرضيه ، ويقول له مدللا « لا تسافر « يا حوده » حتى أحضر لك الكتب واللعب » .

لقد كان الحكيم عطوفا على الكبار والصغار ، حتى الحيوانات والطيور مما لا يجعل منصورة تنساه له أبداً .

لقد كان يشركها معه فى فعل الخيرات ، لتنال معه ثوابها ، فيحثها على « تعبئة » علب اللبن الكبيرة الفارغة ، بالأرز ، والذرة ، لإطعام « العصافير » التى يمتلئ بها جدار « بلكونة » البيت ، فى الصباح الباكر ، بل إن « الكيك » الذى كانت تصنعه « منصورة » كان الحكيم يعطيه

« للعصافير » مما جعلها تشكو إليه تعبها ، وهل هو لإطعامه أم لإطعام العصافير ؟ .

فيشرح لها الحكيم أن تعبها غير ضائع ، بل إنه رصيد لها عند الله الذى جعلها سبباً لرزق هذه العصافير ، وكذلك كان حنو الحكيم على « القطط » ، فقد كانت هناك « قطة » بيضاء تقف على شباك « المنور » ، عندما يراها الحكيم يطلب من « منصورة » أن تطعمها ، ولكن عندما كان فى البيت « كلب » شرس وكانت تضطر لإطعامه ، كانت تقول « وأى ثواب فى إطعام كلب مسعور ؟ ! .

ولم يكن أحد يستطيع أن يقترب من شقة الحكيم أو يدخلها إلا وأصابه الكلب ، مثلا عندما حضر « صابر » أحد سائقى « الأهرام » الذى كان يحضر لأخذ الحكيم إلى مكتبه ، فتحت له « منصورة » الباب وكان خائفا من نباح « الكلب » فرافقته وطلبت منه الجلوس ، ونصحته بألا يخاف أو يظهر خوفه لأن الكلب إذا أحس بذلك سيتجرأ عليه ، ولكن « صابر » لم ينج من « عضة الكلب » ، وليس ضيوف الحكيم فقط بل جيرانه أيضاً ، فقد عض الكلب أحد جيران « الحكيم » وأخذ لذلك واحداً وعشرين حقنة ، واشتكى أهله جارهم توفيق الحكيم ، فى قسم البوليس واضطر الحكيم لدفع واحد وعشرين جنيها غرامة ، ووصل استفزاز « الكلب » إلى درجة لم تنج معها منصورة من عضته رغم أنها هى التى تطعمه « الفتة » واللحم المسلوق ، ففى يوم أراد الخروج من باب « الحمام » الذى كان يوضع فيه ، فجاءت « منصورة » لتحكم غلق الباب عليه فأغلقته على رأسه ففتحت الباب لتسمح له بإخراجها إلى داخل الحمام ، ولكن الألم الذى أصاب رأسه جعله يندفع « ليعض » قدم « منصورة » « عضة » نزفت بسببها دماؤها دون أن تستطيع لها حبساً لغزارتها ، فلم تشعر بنفسها إلا وهى تخير الحكيم بينها وبين الكلب « إما أنا وإما هو فى

هذا البيت » ، ولم يكن فى المسألة خيار يختاره الحكيم ، لقد اتصل على الفور برجال البوليس فأتوا فى نفس ليل اليوم نفسه لإطلاق النار على « الكلب » وتخليص بيت الحكيم من شروره التى لم تسلم منها اليد التى أطعمته ، ولكن الحكيم طلب من رجال الشرطة ألا يقتلوا « الكلب » فى بيته فضلاً عما سوف يستتبعه ذلك من إزعاج لسكان العمارة التى يقطن بها ، لذلك طلب من رجال الشرطة أن يحضروا بالنهار ويأخذوا « الكلب » ليتصرفوا فيه بمعرفتهم ، ولكن أحداً منهم لم يستطع ترويضه للنزول معهم ، سوى « عبده » الذى كان صديقاً لإسماعيل فى فرقته ويساعد فى أمور البيت من باب حبه لصديقه ، حتى إذا مات إسماعيل وانحلت فرقته تعلم قيادة السيارات ، وعمل لدى هيئة اليونسكو فى لبنان ، فنجح « عبده » الذى كان « الكلب » معتاداً عليه لوجوده كثيراً فى البيت ، فى أن يخدع « الكلب » ويوهمه باصطحابه فى فسحة خارج « البيت » ، وقفز به فى داخل سيارة الشرطة التى كانت تنتظر أسفل العمارة ، وأغلق رجال البوليس على الكلب بابيها الحديدين ومضوا به ، وبقيت « منصورة » ، ولكن حنقها على الكلب الشرس الذى سبب لها الأذى لم يجعلها تكره كل الكلاب فليست كلها شرسة ، ولذلك فإنها كثيراً ما تصطحب « محمدا » حفيد الحكيم خارج البيت لتشم الهواء ، ويلعب هو مع الكلاب التى يحب أن يلاعبها وتلاعبه ، ومنصورة مطمئنة إلى أن الكلاب لا تؤذى طفلاً ، ثم إنها تأخذ بالها منه كإبنها أو كحفيدها إن كانت قد تزوجت وأنجبت ، ولكن ليس هذا هو ما يشغلها بعد أن مرت السنون وانقضى من العمر ما انقضى ، إنما الذى يشغلها هو « حج مبرور » ، ولذلك حينما سألها الحكيم ذات مرة عما إذا كان نفسها فى شىء تريد تحقيقه ؟ ، فتقول له « نفسى أحج » ، فيقول لها : إن شاء الله ستحجين ولكن بعد أن أموت أنا » ، وقد تحقق شطر النبوءة بموت الحكيم ، فهل

سيتحقق الشطر الثانى منها ؟ ولكن منصورة تشاءمت من هذه النبوءة التى لا تتحقق إلا بموت سيد البيت ، فسارعت تقول :

الشر بره وبعيد .. ربنا يطول عمرك .. ولا أريد أن أحج ؟

تقولها وهى مضطرة ، فالحج أمنية ترجو تحقيقها ، فيطمئنها الحكيم : إن شاء الله ستحجين ؟ . وكأن الحكيم ينبوءته عن الأمانى التى لا تتحقق إلا برحيله ، يرى فى الأفق قرب النهاية ، فلأول مرة عندما بدأ رحلة مرضه ١٩٨٤ ، لم يكن معه سوى منصورة ، التى استنجدت بزوجة ثروت أباظة ، تليفونيا ، فقامت السيدة الفاضلة باستدعاء الأطباء له ، وكانت تطمئن على صحته طوال الوقت ، تليفونيا أيضا ، حتى جاء عبد الله عبد البارى (رئيس مجلس إدارة الأهرام آنذاك) ونقله إلى مستشفى « المقاولون » وقال له معاتبا : كيف تعتمد على مديرة بيتك وحدها وهى لا تستطيع أن تتصرف وتستدعى لك الأطباء ؟ .

ومنذ ذلك الوقت بدأ دخول « زينب » إلى حياة أبيها ، فعندما جاءت من الاسكندرية لزيارته بعد حصول أولادها على أجازتهم الصيفية ، وجدت أن ظروفه الصحية تستدعى تواجدها بجواره بصفة دائمة ، فكانت تشرف على إعطائه الأدوية المطلوبة فى مواعيدها المضبوطة ، وعندما عاد إلى البيت بعد شفائه من مرضه الأول ظلت ترعاه خلال فترة كان أحوج ما يكون فيها إليها ، فكانت منصورة تقول للحكيم :

ربنا أكرمك بالست سوزى إنسانة طيبة وبنت حلال ، ولو ربنا يحبنى كان رزقنى ببنت مثلها ، فتقول لها زينب : ما معنى هذا الكلام .. ألست أنا ابنتك بالفعل » ؟ .

فتجيبها منصورة ومعى مبتهجة : طبعا إبنتى وأكثر من إبنتى » ، وتمضى حياة الحكيم فى سنواته الأخيرة بين الصحة والمرض ، حتى نقل

ذات مرة إلى مستشفى القصر العينى ، فلم يمكث بها إلا حوالى أسبوعين ، ثم عاد مرة أخرى إلى بيته يشكو لمنصورة نصيحة الأطباء له :

عليك أن تستريح من الكتابة لمدة شهرين » .

ويقولها الحكيم معقبا : وأنت تعرفين يا منصورة أن الكتابة شىء يجرى فى دمى لا أستطيع أن أتوقف عنه .

فتواسيه قائلة : معلهش .. الشهرين يفوتوا بسرعة وترجع تكتب أحسن من الأول .

ولكن توفيق الحكيم لا يقتنع ، فألعن شىء يصيبه أن يتوقف عن الكتابة ، وألعن من ذلك ألا يجد ما يكتبه ، ولذلك كان يقول فى المستشفى لمن حوله : إننى أريد أن يأتى أجلى قبل أن يتوقف عقلى عن الفكر ، وتتوقف يدى عن الكتابة ، لا أتمنى أن أعيش يوما واحدا إذا حدث لى هذا .

ولذلك كانت تقلقه نصيحة الأطباء أن يظل شهرين بلا كتابة ، ولكن لم يكد يمر أسبوع حتى عاوده المرض من جديد ، فنقل إلى مستشفى مصر الدولى ، ولكنه أراد الإنتقال إلى مستشفى « المقاولون العرب » حسب رغبته ، وقبل أن يحدث ذلك بيوم واحد اتصل تليفونيا بمنصورة وقال لها : أريد أن أعود إلى البيت وآكل من طعامك يا منصورة .. أنا « قرفت » من أكل المستشفيات » فتقول مشجعة : شد حيلك واشف بسرعة وارجع لنا بصحة جيدة .. وكل ما تطلبه من عينى » .

وتسعد « منصورة » ، لأن توفيق الحكيم يتذكرها ويتذكر طعامها حتى فى مرضه ، ولديه كل الحق فى ذلك ، فكيف ينسى طعامها فى سنوات صحته ، ثم فى سنوات مرضه الأخيرة ، كيف ينسى ، محشى ورق العنب ، و « الكوسة » ، و « دقية البامية » ، و « المسقعة » ، وسمك « الوقار » المقطع ترنشات ، ولحم « البفتيك » والحلو ، « كومبوت » وهو عبارة عن

« خوخ » أو تفاح » يغسل ويقشر ويقطع ويغطى بالماء المذاب فيه السكر ، و «البانيليا ، ثم يوضع على النار لينضج ، ثم يوضع فى الثلاجة ليتناوله بالمعلقة بعد الغداء ، وبعد العشاء ، ولم يكن الحكيم يتناول هذه الأطعمة مرة واحدة ، على مائدة واحدة ، فكثرتها أمامه « تسد نفسه » كما يقول لمنصوره ، بل يجب أن تتوزع على الوجبات ، ويتناول منها بالقدر الذى يطبق فيه الحكمة النبوية « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . فهذا هو منهج الاعتدال الذى كان يسير عليه الحكيم ، فى طعامه ، فيتناول مثلا قطعة لحم واحدة ، حيث كان يفضل اللحم على الدجاج ، أو يأكل قطعة من السمك ، ويتناول طبقا من الشوربة ، ونصف رغيف ، وأحياناً ربع رغيف .

وقد ورث الحكيم الاعتدال فى الطعام عن والده ، كذلك النظام فى مواعيد الطعام ، وكلاهما الاعتدال ، والنظام ، يضمنان صحة لا يعتورها المرض إلا مالا راد له كأمراض الشيخوخة ، فقد كان الحكيم حتى سنواته الأخيرة يصحو قبل السادسة ويصلى صلاة الصبح ، ويقرأ القرآن ، ويفتح الراديو على قرآن السادسة ، ثم يشرب الشاى الحلو الخفيف مع قطعة أو اثنتين من الكيك ، ثم صار يعتمد على « اللبن » فى « فطوره » ، أما الغداء فكان يتناوله فى الساعة الثانية والنصف بعد عودته من الأهرام ، فيخلع ملابسه ، ويغسل وجهه ، ويرتدى ملابس البيت ويجتمع مع أسرته حول مائدة واحدة ، ويأتى طعام العشاء فى الساعة العاشرة مساء ، يتناول فيه « الشوربة » ، ثم قطعة « جاتوه » ثم « كومبوت » ، وكان يتناول « الزبادى » بالسكر لمدة سنتين أو ثلاثة ، وفى سنوات مرضه الأخيرة لم تعدله مواعيد فى طعامه ، فكانت منصورة تأتيه بالطعام فى حجرة مكتبه ، فيطلب منها تغطيته حتى تنفتح شهيته ، وفى بعض الأحيان كان يأكل عند حضور الطعام ، ولما دخل الحكيم المستشفى وأبدى شهيته لطعام منصورة ،

كانت تتمنى عودته ليأكل من طعام يدها بعد أن مل طعام المستشفيات ، ولكن بعدها بيوم واحد كان الحكيم قد نقل إلى مستشفى آخر حسب رغبته ، ولكن « منصورة » كانت تعد له ألواناً من الطعام الذى يحبه ، كالسمك ، والبامية ، ليتناوله فى المستشفى ، وكانت ابنته زينب تتولى مسألة المشروبات الغازية ، وكانت منصورة دائمة السؤال على الحكيم فتحكى لها زينب عن آخر تطورات مرضه ، هل أكل ، هل تكلم ، هل صحته كما هى أم تحسنت ؟ [وفى الليلة الأخيرة] اتصلت زينب بمنصورة لتخبرها بأسوأ خبر : البقية فى حياتك ، فلم تشعر بعدها أنها فى هذه الدنيا ، بكت حتى لم تعد ترى ما حولها ، لم تكن تتوقع أن تكون نهايته بهذه السرعة ، ففى كل مرة يدخل المستشفى كان يعود بعدها إلى بيته ، على هذا الأمل عاشت منصورة ، حتى جاء الخبر الحزين ، الخبر الذى لم يساوه سوى خبر وفاة أمها التى ماتت قبل أن تراها ، وفكرت وقتها فى العودة إلى بلدها الاسكندرية بعد أن لم يعد فى البيت أم ، ومن قبلها مات الأب الذى لم تشعر بالحزن عليه كثيرا لأن سنها كانت لاتزال صغيرة ، ستة عشر عاما ، كما فقدت أخًا لها وأختًا خلال ثمانية وعشرين يوما ، صحيح أنها حزنت عليهما كثيراً جداً ولكن ليس كحزنها على الحكيم الذى كلما جاءت سيرته أمامها لا تتمالك نفسها من البكاء ، فقد فضلته على أهلها ، ولم تشأ أن تتركه بعد وفاة أمها ، لقد اختارت بيت الحكيم على بيت أسرتها ، حتى بعد وفاة الحكيم ، إنها تحاول أن تبعد نظرها عن حجرته فهى لم تعد تتمالك نفسها من الدموع كلما شعرت أن الحكيم لم يعد موجودًا بها ، إنها لا تستطيع أن تنساه وكأن صوته لايزال يناديها ، فرغم رحيله فإن صدى صوته لاتزال تشعر أنه يرن فى أذنيها ، إلى درجة أنها فى بعض الأحيان تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، وعندما يأتى الليل تتذكر حسناته ، إطعام العصافير ، مساعدة المحتاجين من شغالين

وشغالات العمارة ، انتظاره بالباب ليستقبلها عند عودتها من عند الطبيب حينما كانت مريضة ، انحناؤه لحمل الأشياء التى لم تكن تستطيع الانحناء لحملها بسبب الحزام الطبى الملفوف على ظهرها ، شريط من الذكريات يمر أمام ناظرى « منصورة » فتغلبها دموعها على الرجل الذى لا يعوض ، إنها لا تستطيع أن تسيطر على انفعالاتها وتصمت عن حزنها ، كما كان يفعل الحكيم حينما يموت عزيز لديه ، أخوه ، زوجته ، إبنه ، أمه ، كان من فى البيت يغلقون الراديو والتلفزيون حزنا ، ولكنه كان يقول لهم : هذا خطأ ، اسمعوا الراديو وشاهدوا التليفزيون ، [يريد منهم أن لا يتوقفوا أمام الحزن الذى لم يعد يرجى منه عودة لراحل قد غاب ولن يعود]، ولكن رغم كل ذلك فإن مشاعر الحزن تبدو على الحكيم يحسها من يعيشون معه ، إنه يجلس مع نفسه مغلقا حجرته عليه سارحا فى تأملاته وأحزانه ، فتحاول « منصورة » أن تخرجه من هذا الجو الكئيب الذى يعيش فيه رغم أنه إما أن يكون فاتحا الراديو ، أو التليفزيون ، ولكن يبدو لمن يشعر به ، كأنه فى عالم آخر لا يشعر بما حوله ، فتقترب منه منصورة لتشده من سرحانه إلى عالم الواقع فتسأله مثلا : تشرب قهوة ولا شاى ، أم أحضر لك الطعام ، تحب تأكل إيه ؟ فلا يلتفت إليها وكأنها غير موجودة ، فتقترب منه أكثر وتحاول أن تنبهه : حضرتك ألا تأخذ بالك من كلامى ؟ ، فيقول لها : هو انت قلت حاجة ، فتقول له : « أنا أقول لحضرتك تحب أعملك إيه ؟ ، ولما كان يحب « الكيك » فيقول لها : اعملى »، ولو كان سيزوره أحد يقول لها : اعملى « كيك » لتناوله مع الشاى » ، ويبدأ الحكيم فى الخروج من أحزانه شيئاً فشيئاً ، أما المنصورة فارتباطها بالحياة مع الحكيم زهرة عمرها يجعل حزنها يملأ عليها كيانها فلا تستطيع له دفعا فتفتح الراديو فى حجرتها على إذاعة القرآن الكريم ، وتدعو « الله يرحمك رحمة واسعة ويجعل من فوقك رضا ومن تحتك رضا فى

الجنة » ، لقد كانت منصورة تدعو له وهو بالمستشفى ، وهى تصلى الفجر « يارب اشفيه يارب ، يارب أرجعه إلى بيته بالسلامة » ، أما بعد وفاة الحكيم فهى تقرأ له الفاتحة ، وتقرأ له إحدى عشرة مرة ، سورة « الإخلاص » ، ترحما على روحه ، كأنها تناجيه وتقول له : إنها هدية منى يا حسين. يا توفيق يا ابن أم قاسم »[1] .

---

(١) كانت أم الحكيم ينادونها بأم قاسم تيمنًا وتبركًا باسم القاسم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثانى

فلاح عودة الوعى

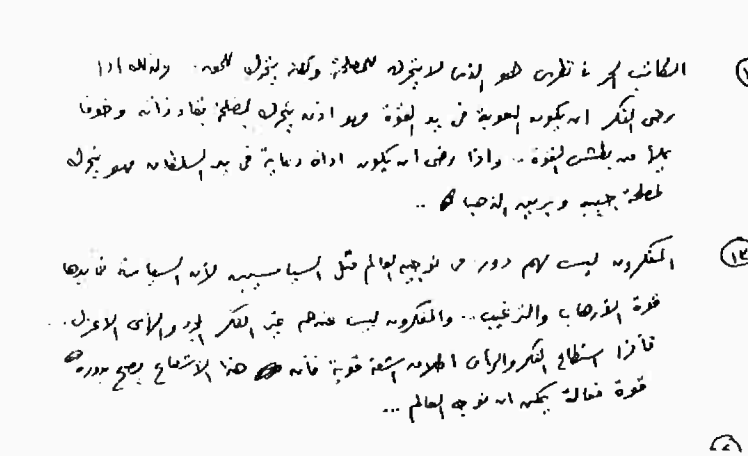

- أنت أمى وأنت أخى ولكن القانون سيطبق عليكما .
- يابنى انت انهزامى واستسلامى وعديم الوطنية !
- أعقل اثنين
- من سرب المخطوطة ؟
- زوجتى غاضبة من أجل الزعيم

(*) من إجابات توفيق الحكيم بخط يده على عدد من الأسئلة التى طرحها عليه المؤلف فى ٢٧ / ١ / ١٩٨٥ .

وإذا كانت هذه هى علاقة الحكيم الحميمة مع خادمة بيته ، فإن علاقته بعبد الجيد خادم أرضه لا تقل شأنا لأنها تمثل علاقة توفيق الحكيم بالقرية والفلاحين ، وهى علاقة حميمة عبر عنها منذ البداية فى صرخته الثائرة للمطالبة بتحسين أحوالهما فى « يوميات نائب فى الأرياف » ، بل حتى عندما استقر بالمدينة اصطحب معه من القرية « حماراً » مؤنساً لفكره وجعله بطلاً لأكثر من عمل من أعماله ، وعندما وجد فرصة للمشاركة فى تحقيق مكاسب للفلاحين لم يتردد للحظة واحدة ، ولذلك عندما جاءه صديقه الفقيه القانونى عبد الرزاق السنهورى ، المكلف من رجال الثورة بتحديد الملكية الزراعية بخمسمائة فدان ، أو مائتى فدان ، وطلب المشورة من الحكيم ، اختار الحد الأدنى المقترح بمائتى فدان لكى تذهب كل زيادة عن ذلك إلى الفلاحين المعدمين ، وعندما صدر التعديل بعد ذلك بسنوات بتحديد الملكية بمائة فدان ، أصبح هذا القانون ينطبق على أم توفيق الحكيم التى تمتلك مائة وخمسا وخمسين فداناً ، كانت قد دبرت شراءها ، وعاونها فى ذلك ابنها المهندس الزراعى « زهير » ، ولم ينبه توفيق الحكيم أمه ، وأخاه بالتعديل الجديد قبل صدوره وكانت لديه معلومات عنه ، وعندما صدر قانون الإصلاح الزراعى الجديد بتحديد الملكية بمائة فدان ، حاولت أم توفيق وابنها زهير التحايل على القانون بكتابة الأرض الزائدة عن حد القانون بأسماء بعض الأقارب .

ولكن الحكيم تصدى لمحاولة أمه وأخيه وقال لهما : لابد أن يطبق القانون عليكم مثل بقيةالناس ، فقال له أخوه : ولكن هذه الأرض اشتريتها أنا وأمك وكانت أرضا « بوراً » وأنا تعبت فى استصلاحها فكيف يقتطعها القانون منا ؟. فلا تجد هذه الحجة أو ذلك المبرر سبيلاً لتراجع

الحكيم عن موقفه حيال تطبيق القانون ولو كان على أهله ، ويقول لأخيه وأمه « القانون هو القانون فلماذا لايطبق عليكم ؟ لا يشرفنى أبداً أن تتهربوا بالأرض من تطبيق القانون .

وبسبب هذا الموقف توترت العلاقة بين الحكيم وأمه وأخيه ، بل وبينه وبين بعض أقاربه الذين رأوا فى تصرفه شذوذاً وعقوقا ، ولكن الحكيم لم يكن يجامل أحداً حتى لو كان والدته وأخاه أقرب الناس إليه ، ولما كانت الأرض التى تمتلكها والدته مؤجرة للفلاحين يزرعونها ، وكان عليهم كل سنة أن يدفعوا إليها بالإيجار ، فإن بعضهم كان يتأخر فى السداد لظروف خارجة عن إرادتهم ، فتبعث إليهم أم الحكيم تستعجلهم ، فكان ابنها توفيق يستمهلها ويقول لها : خللى بالك طويل على الفلاح ، لأنه غلبان .. مسكين .. مسالم .. مثابر .. يحب الأرض ، ولا يوجد أحد عنده وفاء مثله » . وعلى قلة ما كان الحكيم يزور قريته « أبو مسعود » بدمنهور نظرا لمشاغله خاصة بعد أن صار مشهوراً ثم أصبح رب أسرة ، فإنه فى تلك المرات التى كان يزور فيها قريته كان يختلط بالفلاحين يسمع منهم وهو يجلس معهم فى « الجرن » على « القش » وقد أقام له الفلاحون « شمسية » ببعض العصى المغروزة فى « القش » وفوقها قطعة قماش قديمة ، تحبس الشمس عن الحكيم وجلسائه من الفلاحين الذين يظل معهم من الساعة العاشرة صباحا وحتى الثانية بعد الظهر يستمع منهم إلى همومهم ومشاكلهم - خاصة قبل الثورة - عندما كان الفلاح نهباً لاستغلال رجال الإقطاع ، والرأسماليين الذين كان يحتاج إليهم الفلاح فيعاملونه « بالربا » ، فيخرج الفلاح فى نهاية الأمر صفر اليدين .

يستمع الحكيم إلى كل ذلك وغيره فضلا عن مشاهداته من خلال عمله كوكيل للنيابة فى الريف ، فيعبر عنها فى كتاباته ضمن ما يعبر عن الأحوال الاجتماعية والسياسية و الاقتصادية فى مصر التى يرى فى نهاية

الأمر أنه لا حل لها إلا بثورة مباركة ، بشر بها ودعا إليها وأيدها حينما جاءت وأيد قوانينها التى أنصفت ضمن ما أنصفت « الفلاح » .

وبعد أن ينتهى الحكيم من جلوسه مع الفلاحين فى قريته ، يذهب للغداء ، ثم فى ساعة العصارى يمارس هواية المشى بين المزارع ، وتتنامى إلى مسامعه غناوى الفلاحين ، ويسأل عن أنواع المزروعات ، وكيف تزرع ؟، فيجيبه الفلاحون وقد تجمعوا حوله من جديد يسيرون معه بين الحقول .

* * *

وحينما لم يعد الحكيم قادراً على الذهاب إلى قريته كان همزة الوصل بينه وبينها ، هو « عبد الجيد محمد عبد الرازق » الذى عرفه الحكيم ، وعمره ثمانية عشرة سنة عندما عمل فى أرض أم توفيق يرعى شئونها حتى صار هو « ناظر » الأرض وواسطة العقد مع الفلاحين الأجراء إلى أن توفيت أم الحكيم ، وتم تقسيم الأرض بين الورثة ، وصار توفيق يمتلك (٤٥ فداناً) سجلها باسم ابنته زينب قبل وفاته ، مثلما سجل عقد ايجار الشقة باسمها أيضاً حتى لا ينازعها أحد ، وأصبح ايجار الأرض يذهب لزينب .

ورغم أن الحكيم لديه عقدة من الحساب منذ كان تلميذاً ، إلا أن « عبد الجيد » لابد أن يشرح له المصروفات والتزامات الأرض بالمستندات ، ويطرح له المنصرف من الإيراد ، والباقى يأخذه الحكيم ويعطى به « عبد الجيد » إيصالاً باستلامه ، ولم يحدث بسبب الفلوس أى خلاف بين الحكيم وعبد الجيد ناظر أرضه التى تسمى عزبة « البيه » ، وهو اللقب الذى يحب المتعاملون مع الحكيم أن ينادوه به ، وإذا حدث وأخطأ عبد الجيد فى حسابات الأرض وأعطاه جنيها زائداً فلا يمكن لما

يدخل فى جيب الحكيم أن يخرج منه أبداً ، أما لو حدث العكس وقال له عبد الجيد « أنا أخطأت فى الحساب ولك عندى خمسة قروش » ، يقول له الحكيم « هاتها » .

ولا يتصنع الحكيم فى معاملة عبد الجيد ولا يتكلف معه ، شأن الحكيم فى ذلك مع أى إنسان كبر أو صغر ، صديقاً له أو يعمل عنده ، ورغم أن « عبد الجيد » لم يحصل إلا على شهادة محو الأمية إلا أن الحكيم لم يشعره يوما فى معاملته له بأنه أقل قيمة ، لأن كل إنسان فى نظر الحكيم مادام ناجحاً فى عمله فهو عالم من العلماء ، لأن الدنيا كما يرى تسير بنظام لا يجعل الناس فيها متساوون فلابد أن يكون فيها العامل والفلاح والادارى ، والقاضى ، والمفكر .. الخ ، كل له وظيفته ودوره فى الحياة ، وبقدر نجاح الإنسان فى المكان الذى هو فيه ،بقدر ما تكون قيمته ، ولذلك كان الحكيم لا يتعالى على أحد ، فكان مثلاً يهتم بعبد الجيد حينما يأتى إليه فى القاهرة، ويعتبره كأنه واحدا من أسرة الحكيم أو أكثر. بل إن الحكيم كان يدعو « عبد الجيد » للجلوس معه فى حجرة مكتبه ليشرب معه الشاى ،ويشاهد التليفزيون ، وعندما يأتى مسلسل فيه « فلاحون » ، كان الحكيم يعلق على عدم اتقان الممثلين لدور الفلاح ويقول : انظر يا عبد الجيد إنهم لا يستطيعون أن يمثلوا دور الفلاح ، معقول الفلاح بهذه السذاجة ؟ ويدور حوار بين الحكيم وعبد الجيد ، عن الفلاح والأرض وهموم الزراعة ، والمحصول الذى لم يأت بنتيجة ، فيسأل الحكيم عن السبب ، فيقول له مثلاً إن محصول القطن ناقص لأن الدودة أكلته ، ولكن أين المبيدات ؟ يسأل الحكيم ، ويجيبه عبد الجيد : المبيدات كان فيها عجز هذه السنة ، فيقول الحكيم ؛ كان المفروض وزارة الزراعة توفر المبيدات .

ويستمر الحوار بسيطاً بين عبد الحكيم وعبد الجيد ، الذى كان يسأل

والحكيم يجيبه ويتسع صدره له ، ويحدثه بلغته ومستواه وفكره ، ويعطيه الفرصة ليتكلم ويسأل ، ويصحح له معلوماته فى موضوعات دينية أو سياسية أو أى شئ يختص بأحوال البلد ، ويطلعه كيف تسير الأمور ، ويشرح عبد الجيد وجهة نظره ، وينصت إليه الحكيم ثم يعلق على كلامه ، ودائماً كان عبد الجيد يقتنع ويعود من كل زيارة للحكيم بمعلومات جديدة أضافها أو صححها له ، أو يكون عبد الجيد قد استشار الحكيم فى مشكلة عامة أو خاصة ، أو متعلقة بأعمال الأرض والزراعة والفلاحين والمستأجرين ، وهل كان تصرفه فى هذه المشكلة على صواب أم على خطأ ، فيفيده الحكيم أنه فى هذا التصرف كان محقاً ، ولكن فى هذه المشكلة كان يجب أن يفعل شيئا آخر ، ويمتد الحوار بين عبد الجيد والحكيم الذى يشجعه على إطالة الحوار بأن يحكى له بعض ذكرياته .

وهكذا يشعر عبد الجيد بالألفة وهو مع الحكيم الذى يتركه يجلس معه دون أن يشعره بأى كلفة أو تكاليف ، وإنما يشعره بأنه مثل صديق له يرتاح له ويأنس به ، وقد استطاع عبد الجيد أن يتفهم طباع الحكيم إلى درجة أنه يعرف متى يستطيع أن يستطرد معه فى الكلام ومتى يتوقف عندما يراه وقد دخل فى حالة يسرح فيها مع فكرة تشغله ، فيتركه مع تأملاته دون أن يقطع عليه حبل أفكاره ، إلى أن يحدثه الحكيم فيعود الحوار الذى يمتد ساعات وساعات .

ولا ينام الحكيم قبل أن يطمئن من أهل بيته على راحة عبد الجيد ، طعامه، شرابه، نومه، فكان عبدالجيد يشعر بهذا الاهتمام من الحكيم، فكانت تستريح نفسيته ، ويحس كانه فى بيته لم يفارقه ، وعندما يكون مسافراً عائداً إلى القرية ، يسأله الحكيم عن وسيلة السفر ، ويحذره من ركوب التاكسيات فسائقوها متهورون لا يراعون أصول القيادة ، وينصحه لذلك بركوب القطار ، ثم يطلب منه ألا يغيب كثيراً عن زيارته ،

بل ويطمئن منه على الموعد الذى سوف يأتى فيه ، حتى جاء عبد الجيد ذات مرة على غير موعد ودون انتظار من الحكيم أن يأتى فى هذا اليوم بالذات لأنه لم يمض على زيارته سوى يومين فقط ، فسأله الحكيم عن سبب وجوده فى القاهرة فقال له إنه قد حضر مع آخرين من القرية بطلب من لجان الاتحاد الاشتراكى الذى حشدهم مع من حشدهم من الناس لاستقبال عبدالناصر بعد عودته من زيارة له فى الخارج، ودار حوار بين الحكيم وعبد الجيد حول هذا الموضوع ، الذى ضمنه بعد ذلك ما اعتبره تقييما لثورة يوليو فى كتابه المعروف بعودة الوعى ، والذى خطه بالقلم الرصاص بعد وفاة عبد الناصر ، ولم ينشره إلا بعد رحيله بأربع سنوات ، ولو كان قد نشره فى عهده إبان هزيمة ٦٧ ، لكان الموقف قد اختلف ، لولا أن عملا كهذا كان من شأنه أن يضع ملحا فوق الجرح ، فضلا عن أن الحكيم لم يكن مصدقا أن قواتنا المسلحة يمكن أن تلحق بها هزيمة لأن كل الدلائل كانت تشير إلى حجم الثقة الزائدة فى الجيش وحسن قيادته ، وظل الحكيم على قناعته بحتمية النصر حتى أعلن عبد الناصر بيان التنحى ، لقد كان الحكيم من أواخر من اكتشفوا الحقيقة المريرة ، حتى أن ابنه إسماعيل كان أسبق منه إلى إدراك ما خلف ضباب الأحداث ، ففى تلك الليالى السود بأحزانها وآلامها وأنوارها المظلمة تضليلا لأى غارة عن أهدافها ، كان إسماعيل يجلس على البيانو فى مدخل البيت عن شمال الداخل إليه ، ليعزف لحنا جنائزيا ، فيصرخ فيه والده توفيق الحكيم لكى يتوقف ، ولكن إسماعيل يقول لأبيه صارخا بمرارة تخنقها الدموع وحشرجات صوت تقطعت أنفاسه : لقد هزمنا . ويواصل عزفه للحن الجنائزى الحزين ، فيتهمه الحكيم بأنه : انهزامى واستسلامى وعديم الوطنية !

ويصمت إسماعيل ومعه أهل البيت جميعا ، فقد اعتقدوا بأن المفكر

الكبير لديه فكرة عما يدور على جبهة القتال ، ويحوز معلومات مطمئنة عن وصول قواتنا إلى مرحلة متقدمة فى المعركة ، ولكن أحدا لم يحاول أن يسأل عن أى شئ ظنا منهم أن هذه أسرار لا يجوز السؤال عنها أو البوح بها ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون أنه لا يعرف شيئا عن أى شئ ، سوى قناعته وثقته فى انتصار قواتنا المسلحة رغم ورود معلومات عن انسحابها من سيناء ، كما أخبره بذلك أحد أصدقائه ، ولكنه ظل على تفائله مستعينا بذاكرة التاريخ ، ظنا منه أن هذا الانسحاب يشبه انسحاب الروس من « ستالينجراد » ، لينقضوا بعد ذلك على قوات العدو ، ولكن الحقيقة كانت أسوأ من إمكانية تصديقها ، حتى بدأ ستار ظلمة الليالى والأيام السود ينزاح عن كارثة فى حجم الأمانى التى كانت معلقة على ثورة يوليو وزعيمها الثائر ، وراح الحكيم يدون ملاحظاته وآرائه فى تقييم التجربة كلها وأسماها « عودة الوعى » ، مطالبا بفتح ملفاتها ، ووجدها البعض فرصة لإدانة زعيم الثورة ، واكتشف الحكيم أن فتح الملفات أدى إلى ادانات جديدة لعبد الناصر ، فكتب مرة أخرى ، يطالب بإغلاق الملفات ، ولكن لم يكن هناك جدوى ، فقد استغل بعض بقايا عهد ما قبل الثورة ، عودة الوعى ، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة ، حتى أن بعضهم أبلغ رسالة إلى توفيق الحكيم عن طريق ابنه اسماعيل ، يسخرون فيها شامتين ، قائلين للإبن أن يبلغ أباه :

هل عرفت الآن فقط أن الثورة التى بشرت بها كانت فاشلة؟!

وحزن الحكيم لذلك كثيرا فلم يكن يقصد أن تستغل عودة الوعى بهذه الانتهازية .

ولكن بعض اليساريين المتعقلين تفهموا دوافع الحكيم وهى أنه ينقد لحساب المستقبل لا لحساب الماضى . وسأل التلميذ عمن يكون هؤلاء المتعقلون ؟

فقال الحكيم « من أعقل اليساريين الذين تفهموا موقفى ، خالد محيى الدين ، ولطفى الخولى ، الذين قالوا لى :

إننا لسنا ضد كتابك فكلامك فيه معقول ، وقال خالد محيى الدين : إنه وقف ضد عبد الناصر عندما رأى أنه ضد الديمقراطية ، وأنه يتفق معى فى ضرورة دراسة تجربة عبد الناصر ليس بهدف تجريحه ولكن بهدف الاستفادة من تلك التجربة لعدم تكرار أخطائها ، وقال خالد محيى الدين ولطفى الخولى أنهما فقط ضد التوقيت الذى نشر فيه « عودة الوعى » لأن اليمينيين استفادوا منه لهدم الثورة . فقلت : إنه لا يهمنى اليمين ولا أنظر لهذا وإنما الذى يهمنى أن نعرف الأسباب التى أدت إلى انحراف الثورة وأدت إلى الهزيمة حتى لا نقع بعد ذلك فيما وقعنا فيه .

ولكن فى الحقيقة أنا لم أكن متنبها لحكاية التوقيت الذى ظهرت فيه « عودة الوعى » لأننى كتبتها بمناسبة مرور عشرين سنة على الثورة ، حيث خطرت لى وأنا جالس فى « قهوة » مع نجيب محفوظ وإبراهيم فرج ، قبل أسبوعين من يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٢ ، حينما راح شريط الثورة يمر أمام عينى منذ صباح الأربعاء حينما سمعت بيان الثورة الأول واستيلاء الجيش على السلطة ، فلم التفت لهذا البيان الذى سمعته فى الراديو ، لم أعيه تماما وارتديت ملابسى فى ذلك الصباح وخرجت لتناول الافطار فى « جروبى » ، نظرا لوجود الأسرة للاصطياف فى الاسكندرية وكنت أزورهم كل يوم خميس وجمعة ، نظرا لمشاغلى ، فكنت فى غيابهم أتناول طعامى خارج البيت ، فرأيت وأنا ذاهب إلى « جروبى » فى ميدان سليمان باشا (طلعت حرب الآن) ، دبابات ، فسألت نفسى دون أن أعرف : ماذا تفعل دبابات الانجليز هنا ؟ فلم يكن مألوفا وجودها فى الشوارع ، ولما سألت عن حقيقة الأمر بعض الموجودين فى « جروبى » أخبرونى بأنها دبابات الجيش المصرى الذى استولى على السلطة ، وما بين

البداية حتى هزيمة ١٩٦٧ رحت أتأمل كيف أنه فى تلك الأيام الصعبة لم أجد نائبا عاقلا فى مجلس الأمة يرفع إصبعه ويطلب الكلمة ليوجه سؤالا إلى عبد الناصر عما حدث ، كيف حدث ولماذا حدث ؟ فيجيب عبد الناصر موضحا الحقيقة كل الحقيقة ، وعند ذلك يقدر الشعب الموقف ويتفهمه ويواصل الحرب ولو بالعصى ، ولكننى فوجئت بمن يرقص فى مجلس الأمة ، فكأن الشعب قد فقد وعيه ، ورحت أستعرض شريط ذكريات الثورة منذ قيامها وحتى الهزيمة فى محاولة لاستكشاف واستطلاع ما أدى بنا إلى ما وصلنا إليه ، ولم أبرئ نفسى فقد قدرنى عبد الناصر أكثر مما قدر غيرى وربط بين فكرى وفكر الثورة ومن هنا تضاعفت مسئوليتى فى ضرورة مناقشة كل ما وقع لأننى لا أعطى كائنا من كان تعهدا أبديا بمساندته الأبدية لأن مصر كانت وستظل دائما قبلتى الوطنية ، وبعد أن كتبت « عودة الوعى » بالقلم الرصاص : أخبرت صديقى نجيب محفوظ وإبراهيم فرج بما كتبت ، فأقرانى على ما كتبت وأننى ما قلت إلا الحقيقة ، وسألانى عن موعد نشر الكتاب ، فكان من رأيى ألا ينشر الآن وأن يؤجل نشره إلى بعد أن أودع الحياة ، فطلب منى إبراهيم فرج وهو صاحب مكتب محاماة أن يطبع من المخطوط خمسة نسخ ، واحدة له وأخرى لنجيب محفوظ ، وأن أحتفظ أنا بثلاثة نسخ ، وكانت طريقة الطبع كما اقترحها إبراهيم فرج هو كتابتها على الآلة الكاتبة التى عنده بمكتب المحاماة ، فقلت له : ومن يضمن ألا تتسرب نسخة ممن سيكتبها على الآلة الكاتبة ، فطمأننى إبراهيم فرج إلى أن موظفة الآلة الكاتبة عنده لا تفهم شيئا ، ولن تتنبه إلى أى شئ مما تكتبه ، وبالفعل أخذ كل من إبراهيم فرج ونجيب محفوظ نسخة من « عودة الوعى » بعد كتابتها على الآلة الكاتبة ، وأخذت الثلاث نسخ الباقية ، وأعطيت أحدها لصديقى الدكتور حسين فوزى واستبقيت لنفسى

نسختان ، ثم بعد ذلك فوجئت بتسرب « عودة الوعى » ونشرها مترجمة إلى الفرنسية ، ثم نشرها مرة أخرى مترجمة عن الفرنسية إلى العربية فى صحف بيروت » .

فمن الذى سرب « عودة الوعى » على غير رغبة الحكيم ؟!

حاول الفتى الصحفى أن يجرى تحقيقا صحفيا للإجابة على هذا السؤال . ودارت وقائع التحقيق حول هؤلاء الثلاثة الذين أعطى كل منهم ، توفيق الحكيم ، نسخة من « عودة الوعى » ، هل هو نجيب محفوظ ، أم إبراهيم فرج ، أم د . حسين فوزى ؟

نجيب محفوظ صديق يؤكد الحكيم أنه يثق فيه ، فهو من طبيعته الكتمان ، وهو رغم اتفاقه مع الحكيم ، فى آرائه السياسية غالبا ، وبينهما حوار مستمر ، أغلبه يدور فى مكتب الحكيم بالأهرام إلا أن نجيب محفوظ لا يبوح بشئ ،، وكثيرا ما يردد أنه تلميذ ملازم لأستاذه يستمع منه أكثر مما يتكلم إليه .

أما إبراهيم باشا فرج ، المحامى والوفدى القديم ، وسكرتير حزب الوفد الجديد ، فيؤكد الحكيم أيضا أنه رجل شريف ، فاتجه إليه الفتى الصحفى ، يسأله عن علاقته بتوفيق الحكيم ، فأجابه ، أن علاقتهما بدأت منذ ١٩٢١ كزملاء دراسة بمدرسة الحقوق ، وتخرجا معا فى دفعة واحدة سنة ١٩٢٥ ، ثم افترقا مؤقتاً فى طريق الحياة ، إبراهيم فرج التحق كمحامى تحت التمرين بمكتب مصطفى النحاس ، بينما سافر الحكيم إلى فرنسا لاستكمال دراسته والحصول على الدكتوراه فى القانون ليتسنى له الالتحاق بالنيابة العمومية المختلطة آنذاك ، ولكنه سافر وعاد بدكتوراه الأدب والفن والمسرح مما ثقف به نفسه فى باريس ، وعاد ١٩٣٠ ليلتحق بالنيابة الأهلية مساعداً لنيابة مركز طنطا فى الوقت الذى كان فيه إبراهيم فرج قد أصبح وكيلاً لنيابة مركز طنطا ، فاجتمعا فى نيابة واحدة واتخذا لنفسيهما

مسكنا واحدا بأحد البنسيونات بميدان الساعة بطنطا ، حتى نقل إبراهيم فرج إلى المنيا ، فباعدت بينهما الأيام مرة أخرى ، ليتخذ إبراهيم فرج طريقه فى السياسة ، ويسلك الحكيم طريقه فى الأدب ، وكان يلتقيان من وقت لآخر ويدور بينهما حوار ممتد حتى أصبح إبراهيم فرج عضوا بارزا فى حزب الوفد ، وتوفيق الحكيم عضوا بارزا فى زمرة الأدباء والمفكرين ، له آراؤه السياسية التى كثيرًا ما تختلف بطبيعة الحال مع إبراهيم فرج عضو حزب الوفد الذى لم تمنع صداقة الحكيم له من أن يناوئ ويهاجم الحزب والحكومة التى ينتسب إليها صديقه ، وبعد الثورة و حل حزب الوفد بقى إبراهيم فرج محاميا وظل الحكيم مع قربه ومكانته التى وضعته فيها ثورة يوليو ، محافظًا على علاقاته مع أصدقائه القدامى ومنهم إبراهيم فرج الذى جعله الحكيم محاميه الخاص . الذى يسوى نزاعات أسرته ويحصل له على حقوقه من الناشرين ، وكان الحكيم يثق فيه أيضًا ويسميه « الصديق الوفى » ويصر على مناداته بإبراهيم باشا فرج وكتابة ذلك فى إهداءاته لكتبه له ، حتى بعد إلغاء الألقاب كان الحكيم يصر على الاحتفاظ لصديقه بلقبه ، وكان إبراهيم فرج يزور الحكيم كل يوم جمعة فى بيته القريب منه فى جاردن سيتى ، وكانت زوجة إبراهيم فرج تزور زوجة الحكيم من وقت لآخر . فكانت صداقة قوية بين رجلين إلى درجة أن الحكيم قد طلب من إبراهيم فرج أن يختار عنوانا لمخطوطته التى لم يكن قد استقر على اختيار اسم لها من بين عدة أسماء اقترحها الحكيم ومنها : للحقيقة والتاريخ ، تصحيح لابد منه ، تصحيح لما مضى ، كيف كنا نفهم الثورة ، وكان آخر عنوان اقترحه الحكيم على إبراهيم فرج هو « الوعى المفقود » ، فبادره إبراهيم باشا فرج قائلًا : بل قل « عودة الوعى » أفضل . فارتاح الحكيم لهذا الاسم الذى جعله عنوانا لمخطوطته ، وكان ذلك فى قهوة « بيترو » بالاسكندرية . بل إن إبراهيم فرج بعد أن قرأ مخطوطة « عودة

الوعى » أمد الحكيم ببعض المعلومات التى أضافها على المخطوطة الأصلية ومنها تلك الفقرة الخاصة بحركة التطهير لبعض الرجال الذين أعادتهم الثورة وزراء بعد ذلك ، وذكر إبراهيم فرج للحكيم أسماءهم ، وكتب الحكيم هذه الفقرة .

« ومضت عمليات التطهير دون مبالاة وبغير حساب حتى شملت بعض كبار الموظفين ، الذين اختيروا بعدها بقليل ، وزراء فى ذات الحكومة التى سبق أن أحالتهم للتطهير ، وعلى سبيل المثال المهندس عبد الملك سعد وزير المواصلات السابق ، والدكتور عبد الرازق صدقى وزير الزراعة الأسبق » .

لم يبق سوى د . حسين فوزى الذى أشار الحكيم صراحة إلى أنه هو الذى نشر « عودة الوعى » من وراء ظهره ، فهو أحد الثلاثة الذين قرأوها مخطوطة قبل نشرها ، والدكتور حسين فوزى صديق قديم للحكيم تحدث عنه فى سيرته الذاتية « سجن العمر » حيث تعرف عليه فى « التياترو » فى العشرينات ، وكانت لهما إهتماماتهما الفنية والمسرحية ، وتوطدت علاقاتهما وامتدت حتى وفاة الحكيم . وقد ذكر الحكيم أن حسين فوزى لم يلتزم برغبته فى عدم نشر عودة الوعى ، وحمله المسئولية حين قال : « منه لله صديقى حسين فوزى أخذها ونشرها ثم ذهب يستمع إلى الموسيقى وتركنى أتحمل كل الشتائم والنقد » .

ولكن صديق الحكيم المستشار محمد سعيد العشماوى يبرئ د . حسين فوزى من تهمة نشره عودة الوعى فى باريس بغير موافقة توفيق الحكيم ، فيقول فى شهادته على « عودة الوعى » حينما سأله الفتى الصحفى ، واجابه[1]: «غير صحيح أن د. حسين فوزى قد نشر «عودة الوعى»

---

(١) من حديث خاص للمستشار محمد سعيد العشماوى مع المؤلف فى ٦ يونيو ١٩٨٨

بدون موافقة توفيق بك الذى كان يمسرح المسألة ، فهو الذى أعطى نسخة من مخطوط « عودة الوعى » لحسين فوزى .. على اليقين أعطاها لحسين فوزى لينشرها ، وكان حسين فوزى صديقا مخلصا للحكيم ولم يكن يعمل شيئا يخصه بغير رغبته ، وأنا كنت أجلس فى « سميراميس » ذات مرة ووجدتهما يجلسان منفردين يتحدثان ، بما يسمح لى أن أقول أن حسين فوزى كان وسيط توفيق بك لدى ناشر فرنسى جاءه فى « سميراميس » . واتفق معه على نشر « عودة الوعى » فى باريس ، لأنه لم تكن لدى توفيق الحكيم طريقة لنشر عودة الوعى هنا فى مصر أو العالم العربى » . واستدرك الفتى الصحفى : ولكن محمد المعلم صاحب « دار الشروق » نشر « عودة الوعى » بعد ذلك ؟

فقال المستشار : نشرها بعد أن نشرت فى باريس وبعد أن نشرت فى بيروت .

وسأله الصحفى : هل محمد المعلم هو الذى تبرع من نفسه بعرض نشر « عودة الوعى » ؟

قال المستشار العشماوى : كانت لمحمد المعلم اتصالات بالإخوان المسلمين ، وكان يهمهم نشر مثل هذا الكتاب فى مصر ، وكان هناك صديق مشترك لمحمد المعلم ولى ، قال لى : لو توفيق بك أتى بهذا الكتاب لنشره فى مصر سنأتى له بستة آلاف جنيه ، انتهوا إلى أربعة آلاف فى الطبعة الأولى . وأربعة آلاف فى الطبعة الثانية .

فلما قلت لتوفيق بك ، وجدها فرصة .. فالكتاب قد تسرب .. والمبلغ كبير . فأخذ أربعة آلاف فى أربعة آلاف يعنى ثمانية آلاف جنيه .

وأضاف للطبعة الثانية إضافات قلت له عليها .. فأخذها وقال لى ونحن نسير على الكورنيش أنه أضاف ما اقترحته عليه ، وراح يقرؤه لى ، ونشره فى الطبعة الثانية » .

ومع ظهور عودة الوعى أولا فى باريس مترجمة إلى الفرنسية ، ثم ترجمتها إحدى الصحف البيروتية إلى اللغة العربية لتنشرها .. يكمل ابراهيم فرج رسم صورة وقائع هذا الحدث فيقول : « عندما علم بذلك فؤاد سراج الدين (سكرتير حزب الوفد القديم ورئيس حزب الوفد الجديد بعد ذلك) وكان وقتها بالصدفة يصطاف فى لبنان فأجرى اتصالات بالمسئولين فى الصحيفة اللبنانية واستطاع أن ينتزع منهم مبلغ ألف جنيه كحقوق نشر لتوفيق الحكيم ، وعندما عاد فؤاد سراج الدين إلى القاهرة دعا توفيق الحكيم لتناول طعام الغداء وحكى له ما حدث فعلق توفيق الحكيم على ذلك بقوله : إنهم يسرقوننى » .

ولم يكن أمام توفيق الحكيم بعد « نشر عودة الوعى » خارج مصر سوى أن يتحمل مسئوليتها ويواجه عواصفها ورعودها ، وشجعه على نشرها فى مصر الكاتب الصحفى أحمد بهجت وقال له : إن نشرها فى مصر يهم الإخوان المسلمين والناشر على استعداد لأن يدفع لك عشرة آلاف جنيه ، ولما جاءه الناشر المصرى « محمد المعلم » صاحب دار الشروق ليشترى منه حق نشر « عودة الوعى » وضع أمامه شيكا بألفان من الجنيهات مقابل السماح له بنشرها ولكن الحكيم طلب عشرة آلاف جنيه طبقا لما قاله له أحمد بهجت ، ويبدو أن أحد الصحفيين كان قريبا من مكتب الحكيم بالأهرام وسمع بذلك فنشر فى صحيفته أن الصفقة التى تواطأ فيها الحكيم مع اليمين ثمنها عشرة آلاف جنيه ، وأراد الحكيم أن يبرر أخبار هذه المساومة التى تسربت أخبارها فقال : إنه أراد تعجيز الناشر حتى لا ينشر عودة الوعى فى مصر ، غير أن الاتفاق كما يؤكد الحكيم قد انتهى إلى ألفان من الجنيهات ، ولكن إبراهيم فرج الذى أبرم العقد يؤكد هو الآخر أن توفيق الحكيم قد حصل على ثلاثة آلاف جنيه .

ومهما يكن فإن الحكيم لم يجد بدًا من الموافقة على نشرها فى مصر ،

فذلك أفضل بالنسبة له وهو لم يتعود أن يتنكر لشئ كتبه أو قاله ، ثم إنه من الأفضل له أن يستفيد بحقوقه المادية عن نشر عودة الوعى فى مصر ، ولم يشأ أن يتمسك بمبلغ معين عن حقوق نشرها ، فقد تسربت عودة الوعى أو هكذا قال الحكيم ، ونشرت خارج مصر وما أسهل على الناشر المصرى أن ينقلها ويعيد نشرها ، وياطول بال المحاكم إذا فكر الحكيم فى رفع قضية يطلب فيها حقوقه ، لذلك رأى الحكيم أن يرضى بما قسم له فإن أحدًا لم يصدقه ولن يصدقه ممن هاجموه فى أنه لم يكتب عودة الوعى طعنا فى الثورة أو انتقاما من عبد الناصر،فهو أولى وأحق بحقوقه عن نشر « عودة الوعى » مادام يتحمل مسئوليتها أمام التاريخ .

ويدافع الحكيم عن نفسه بأن للكاتب الحق فى أن يعيد النظر فى بعض المواقف أحيانا على ضوء توفر معلومات جديدة لم تكن معروفة له من قبل ، ولم تنفع الحكيم أى تبريرات واستمر الهجوم عليه ، حتى أنه فوجئ بامتداد الغضب عليه إلى داخل بيته ، فقد خاصمته زوجته بسبب « عودة الوعى » ، رغم أنها كانت هى التى أكدت عليه ألا ينحنى أمام عبد الناصر حين يتسلم منه « قلادة النيل » التى منحها الزعيم للمفكر ردا على مهاجميه ، الذين أرادوا أن يسلبوه « حماره » وينسبونه إلى أديب أسبانى ، كما كانت القلادة تعبيرا عن تقدير الزعيم عبد الناصر لفكر الحكيم الذى تأثر به خاصة فى « عودة الروح » .

ولما رأى الحكيم غضب زوجته منه قال لنفسه أنه لابد قد جرح عبد الناصر ، فأعاد قراءة « عودة الوعى » مرة أخرى وكان فى نيته أن يحذف أى جملة فى الكتاب فيها مساس بعبد الناصر ، ولكنه بدا مقتنعا أنه لم يمس عبد الناصر فيماكتبه ، وإن كانت هناك انتقادات لنظام حكمه .

واستمرت العاصفة تتصاعد ضد توفيق الحكيم فأراد الاستنجاد

بصديقه المستشار سعيد العشماوى للحصول على وثائق التحقيقات الخاصة بلطفى الخولى وصحبه ، بخصوص جدل حدث حول توسيط الحكيم لكى لا يبعد محمد حسنين هيكل عن الأهرام لكى يصبح وزيرا ، وكتب الحكيم بذلك خطابا إلى عبد الناصر ، يقول له فيه إن هيكل الكاتب أفضل له من هيكل الوزير ، وتسرب خبر الخطاب ، وكانت له تداعيات أدت إلى التحقيق فى الأمر ، مما جعل الحكيم يحاول الحصول على وثائق التحقيق ليستشهد بها ، على أنه لم يكن من الممكن أن يكتب كتابه وينشره فى عهد عبد الناصر ، لأنه إذا كانت رسالة قد كتبها بشكل شخصى من المفكر إلى الزعيم ، قد تم تحويلها إلى النيابة ، وحقق مع ناس وسجنوا بسببها ، فماذا كان سيكون عليه الموقف لو نشر « عودة الوعى » فى تلك الفترة ؟

وسأله التلميذ ما الذى كان يمكن أن يحدث لو نشرت عودة الوعى فى عهد عبد الناصر ؟

فقال الحكيم : لو حدث ذلك لأرسل إلىَّ فرقة ضرب نار » !

وطلب الحكيم من المستشار العشماوى أن يحصل له على وثائق التحقيق مع لطفى الخولى وصحبه ، فطلب منه المستشار بالتالى أن يكتب خطابا بما يريده ويوجهه إلى وزير العدل ، الذى أشر بالموافقة ، فجاء كتاب الحكيم « وثائق فى طريق عودة الوعى » ، وقد أحس اليسار بالذات أن توفيق الحكيم هو أشبه بقائد كبير فى معركة قد انتقل من موقعه إلى المعسكر المعادى للثورة ، وأصبح نجما من نجومه ، ولم يكن الجميع ، إلا قلة نادرة على استعداد لأن يصدقوا حسن نواياه .

* * *

وكلما رأى الحكيم ، « عبدالجيد محمد عبد الرازق » ، يتذكر « فلاح عودة الوعى » ، وتداعيات تلك الفترة ، ثم لا يلبث إلا أن يطوى هذه

الصفحة ليرحب بضيفه ويقوم بالواجب نحوه ، بل إن تحية الحكيم تمتد إلى أولاد عبد الجيد ، كلما جاء أحد منهم إلى القاهرة ، فيقضى ليلة أو ليلتين أو أكثر ، فى ضيافة الحكيم ، الذى يسأل أولاد « عبد الجيد » عن أبيهم : كيف حاله ؟ لماذا لا يأتى ؟ لقد غاب عنا كثيرا هذه المرة .

وكحبه لأبيهم كان يحبهم ، فقد تعرف عليهم جميعا ، عندما كان « عبد الجيد » يستشيره فى أمور دراستهم ، فمن لم يقتنع برأى أبيه منهم ، أتى به إلى القاهرة ليستمع إلى رأى الحكيم بنفسه ، ويوصيه : مثلما يقول لك البك افعل فأنت لن تعرف مصلحتك أفضل منه .

له ابن أسماه جمال ، تيمنا وحبا لاسم جمال عبد الناصر ، بعد أن حصل على الاعدادية بمجموع كبير طمع فى دخول الثانوى العام ، ولكن والده عبد الجيد ، قال له :

أنت رجل تؤمن بالعمل ولن تصلح للأعمال المكتبية .. لامستقبل لك إلا فى التعليم الفنى .. صنايعى سيارات .. جرارات .. خراطة .. تجارة .. شغل ينفعك تستخدم فيه عقلك ويديك .. إنما لو اشتغلت على مكتب لن تستطع أن تستغل طاقات عقلك ويديك .. وانت يابنى فلاح يجب أن تعتمد عل طاقاتك دون أن تعطلها بالجلوس على مكتب ، ولذلك فالتعليم الفنى أفضل لك » .

ولكن « جمال عبد الجيد » لا يقتنع بكلام والده ، ويصعب عليه أن يضحى بمجموعه الكبير فى الإعدادية دون أن يدخل الثانوية العامة ، فقال له والده :

تعال معى إلى القاهرة والبيه – توفيق الحكيم – هو الذى يحكم بيننا ، والذى ينصحك به أنا موافق عليه » ، ولم تكن وجهة نظر الحكيم لتختلف مع وجهة نظر عبد الجيد عندما شرحها للحكيم الذى قال له « هذاهو

الرأى الصحيح وأنا موافقك عليه » ، فاقتنع جمال ونجح فى دراسته وحصل على دبلوم صناعة ، قسم سيارات .

أما « مجدى » فقد كان أزهريا دخل كلية الشريعة والقانون ، ولكن يبدو أنه وجد صعوبة فى دراستها ، فأراد أن يحول منها إلى كلية أخرى سهلة الدراسة والنجاح ، فقال له أبوه عبد الجيد لو تركت كليتك ستكون إنساناً ضعيف الإرادة غير قادر على تحمل الأمور الصعبة ، والرأى لك فى النهاية لكن بعدما نأخذ رأى البيه ونستشيره فى الموضوع ، فكان رأى الحكيم : « لا يامجدى لا تترك كلية الشريعة والقانون لازم تحبها وتنجح فيها ليس من أجل نفسك فقط ولكن من أجل بلدك » ، وأهداه الحكيم أجندة وكتب له متمنيًا له الحياة الموفقة لخدمة نفسه وأهله ووطنه ، ونزل « مجدى » على رأى الحكيم وكان عند حسن ظنه به .

ولما أراد « شعبان » أن يسلك سلك التعليم العام كانت رغبة والده أن يتخصص فى الدراسة الزراعية ، ليساعده ويساعد إخوته الفلاحين الذين لم يتعلموا ، فيكون بتعليمه الزراعى إضافة علمية لإخوته بخبرتهم ، ولم يقتنع « شعبان » إلا بعد أن سمع من الحكيم موافقته على رأى أبيه : لازم يا شعبان يكون فيه واحد فى إخواتك « زراعى » يدرس الزراعة من الناحية العلمية وتساعد إخوتك الفلاحين .

وعندما وضعت زوجة عبد الجيد مولوداً جديداً وكان حلو الملامح والتقاطيع ، رأت أسماء البسطامى أم الحكيم أن تطلق عليه اسم ابنها توفيق ، ووجد هذا الاقتراح ترحيباً وقبولاً من عبد الجيد وزوجته ، وكان عبد الجيد يقول للحكيم : هذا الولد اسمه على اسمك وانت ملزم به تشجعه ليكون حاجة كبيرة مثلك » ، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، فقد تعثر توفيق عبد الجيد عبد الرازق ، فى دراسته ولم يستطع أن

يسير فيها فخرج وهو فى المرحلة الابتدائية وانضم إلى أخيه « محمد » ، يساعدان والدهما فى زراعة الأرض ، « محمد » يقود الجرار الزراعى ، وتوفيق يرعى الأرض بفأسه ومحراثه ، ولم يغضب الحكيم لأن سَميُه لم يحقق ما كانت ترجوه منه أسرته بتسميته باسم المفكر الكبير ، بل إنه قال : من الأفضل إن توفيق ينتج فى أرض يعرفها ويحبها ويرتبط بها ، ويخرج منها أسرارها وخيراتها ، فيستجيب لها وتستجيب له ، وإذا نجح فى أن يكون فلاحاً واعياً بأرضه وبرسالته فهو لا يقل قيمة عن أى عالم من العلماء فى تخصصه ، وكل إنسان مهيأ لما خلق من أجله .

وهكذا كانت علاقة الحكيم بناظر أرضه عبد الجيد ، وأولاده ، يشعرهم كأنهم جزء من أسرته ، وكان الحكيم يقول لزوجته : « عبد الجيد » وعياله جزء منا » فكانت تطمئنه على طعامهم وشرابهم ونومهم خلال وجود أحدهم فى بيت الحكيم ، وكانت السيدة زوجته تعطيهم نقوداً ، فقد كانت هى التى تتولى المسائل المالية ، ولم تك تترك عبد الجيد وأولاده دون أن تسألهم عن حاجتهم وتطمئن على رضاهم ، وكان الحكيم رغم أن له طعاما مخصوصا بحكم السن ، فإنه كان يطلب أن يتذوق من طعام أهل البيت وزواره مشاركة معنوية منه للمرتبطين به ، ولضيوفه ، ويقول لهم « الله .. طعامكم حلو .. بالهنا والشفا » .

ولم يكن الحكيم ينسى أن يوصى عبد الجيد أن يأتى له بالذرة الخضراء ، والفول الأخضر ، حيث يفضلها الحكيم ويستمتع بأكلها . وكانت عادة سنوية ، « الفول » يأكله ، الحكيم وهو أخضر ناضج شهى ، أما الذرة فهو لا يفضل شيه ، وإنما توضع أربعة أو خمسة « كيزان » على النار فى ماء وملح ، حتى يغلى الإناء بما فيه ، ثم يأكله الحكيم مسلوقاً ، ولقد اعتاد أهل بيته أن يفعلوا مثله ، وكان عبد الجيد حريصاً على أن يأكل الحكيم الذرة والفول الأخضر قبل أن يأكله أحد من الناس .

لقد كان عبد الجيد يحب الحكيم ، وفى آخر لقاء لها قبل مرض الحكيم وانتقاله إلى المستشفى بشهر واحد ، كان الحديث بينهما يدور فى أمور الدنيا والآخرة ، وكأن الحكيم يشعر بقرب انتقاله من الدنيا إلى الآخرة ، وعندما علم عبد الجيد بخبر وفاة الحكيم ، وقبل أن يتصل به أحد كان قد وصل إلى القاهرة ما بين الثانية والنصف والثالثة بعد منتصف نفس ليلة رحيل الحكيم ، لقد شعر عبد الجيد كأن إنساناً عزيزاً عليه قد فقده ، وهو اليوم حين يدخل من باب العمارة التى يسكنها الحكيم يشعر بالحزن ، ويتضخم حزنه حينما يقف على باب الشقة يدق جرس بابها ، وبعد أن يدخل يشعر بحالة اكتئاب نفسى لأنه لن يعد يرى الرجل الذى أحبه .